الأنثروبولوجيا ومساحاتها التأويلية

د. محمد جودات[1]

1: الأنثروبولوجيا كعمل إشكالي:

غالبا ما تلصق هذه الدراسة بالشعوب البدائية، فكلود ليفي ستراوس يرى أن "الأنثروبولوجيا ولدت ضمن صيرورة تاريخية تم خلالها استبعاد القسم الأكبر من البشر بواسطة قسم آخر" ويعتبر "أن الأنثروبولوجيا هي ابنة عصر العنف، وهي إذا ما كانت قادرة على التعاطي موضوعيا مع بعض الظواهر الإنسانية فهي مدينة بهذه الميزة المعرفية إلى حالة من الواقع ادعى فيه قسم من البشرية حق معالجة (الآخر) كموضوع، كشيء" [2].

فهذا التحديد طرح إشكالا لماهية هذا العلم باعتباره معرفة انتقائية تستبعد قسما من البشر وتركز الاهتمام على "آخر"، وهو علم أنتجته ضرورة معينة، وكأنه بهذه الصفة يفقد خصيصة من خصائص المعرفة العلمية، ثم هي مشكوك في قدرتها (بدليل عبارة "إذ لو كانت قادرة... موضوعيا") فذلك راجع إلى شروط إمكان ماضية في زمن مضى، ثم هي تجرد الموضوع المدروس من بشريته وتعتبره آخرا وشيئا... والنص يستطيع أن ينطق (إذا توفرت شروط معرفية عميقة بالعمل الستراوسي) ويكشف ما هو أبعد من هذه القراءة الأفقية.

وهناك رأي آخر أكثر شيوعا وهو مضمن جزئيا في هذه الترسيمة العامة لليفي ستراوس، وهي كون الأنثروبولوجيا تشتغل على المجتمعات البدائية و"بينما يتعامل عالم الاجتماع مع المجتمعات المعقدة الحديثة (الثانوية) يحصر عالم الأنثروبولوجيا اهتمامه بالمجتمعات غير المعقدة (الأولية)" [3] فهذا الطرح يجعل علم الاجتماع في مقابل علم الأنثربولوجيا من حيث مجال الاشتغال، وهو طرح شائع. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الدراسات الأمبريالية والاستعمارية قد استعملته بشكل مماثل في دراسة الشعوب المستهدفة، ومن منطلقات عنصرية في هذا السياق غير المعرفي أيضا؛ والهادف إلى نوايا استعمارية، و"لتسهيل عملية الاتصال بالزعماء وحكم العامة، وأنشئ معهد عال للغة العربية والبربرية في الرباط سنة 1914، وصدر قرار مقيمي سنة 1915 بتأليف لجنة خاصة للأبحاث البربرية هدفها جمع الأبحاث المتعلقة بالقبائل من جميع أطراف المغرب، واستخراج نتائج عملية من هذه الأبحاث تساعد فرنسا على تنظيم هذه القبائل وإدارتها بشكل يتفق مع المصلحة الفرنسية"[4] فإنشاء هذه المعاهد وأمثالها كان لغاية غير معرفية بل استعمارية تبحث في القبائل، وترجو من وراء ذلك "نتائج عملية" تفيد

---

[1] - أستاذ بكلية الآداب جامعة محمد الخامس - الرباط.

[2] - Claud levi Strauss: l'anthropologie structurale II P49
نقلا عن: اشلي مونتاغيو: البدائية / ترجمة د. محمد عصفور ص 8 سلسلة عالم المعرفة العدد 53.

[3] -مونتاغيو: البدائية / ترجمة د. محمد عصفور، ص 8. م.س.

[4] - إدريس كرم / مواقف وتطلعات الإنسان الغرباوي من خلال أدبه الشعبي، ص 17 رسالة السلك الثالث مرقونة بجامعة محمد الخامس. هذا نموذج لاستعمال لانتروبولوجيا في خدمة الأمبريالية وتجريده من علميته كمجال معرفي.

العملية الأساسية وهي السيطرة والاستعمار و"المصلحة الفرنسية"، الشيء الذي جعل الموقف من هذه المعارف يمشي في هذا الاتجاه. ومن وجهة نظر الاستعمار في علاقته بهؤلاء المشتغلين في ميادين البحث أو بالأحرى المكلفين بهذه المهام يقول اليوطي: "فالمخزن محظوظ، الزعماء التاريخيون والباشوات يلتفون حوله كما لو كان تاجا مرصعا بالجواهر الثمينة، وتعلمون جميعا مدى الحذر الذي بمقتضاه نتصل دائما بهؤلاء، حيث مازالت الأصول والرتب الوظيفية محفوظة ومحترمة وحيث الناس والأشياء باقية على أحوالها القديمة، وحيث الرؤساء التقليديون يحكمون ويطيع الآخرون"[5].

لا يهمنا في عرض هذه الوثيقة علاقة السلطة الاستعمارية ونظرتها إلى المستعمر أو طرق الاختفاء والتنكر والسبل التي يستعملها المكلفون بمهام هذه الدراسات أو أهدافها، فكل ذلك بات واضحا في الدراسات التي تشتغل على مراحل الاستعمار بالمغرب أو غيره، لكن ما يهم هنا هو هذه العلاقة التي للبحث الأنثروبولوجي أو نموذج منه مع السلطة الاستعمارية، وهو موقع الشاهد الذي جعل لهذا الفهم مشروعيته في التصنيف. على أن لتوجهات أخرى في تصنيف هذا العلم أهميتها ومبرراتها، من هذا المنطلق يذهب فوزي رضوان العربي (أستاذ الأنثروبولوجيا التطبيقية بجامعة الإسكندرية) إلى أنه "كان يعتقد فيما مضى أنها (الأنثروبولوجيا) تقتصر على دراسة المجتمع البدائي، ولكن ثبت الآن خطأ هذا الاعتقاد، فالأنثروبولوجيا تهتم بجميع المجتمعات، سواء البدائية منها أو الحديثة، بل إن بعض الأبحاث الأنثروبولوجيا تدرس الآن المحلات التجارية الكبرى...." [6].

ويذهب - في إطار كرونولوجيا تأصيل هذا العلم - إلى أن العلماء العرب الأوائل قد أسهموا هم أيضا في الدراسات الأنثروبولوجية أمثال البيروني في كتابه عن الهند، واعتبره الباحث من "أوائل الكتب الأنثروبولوجية العربية لأنه يعطينا صورة واضحة ومتكاملة عن الهند ونظمها الاجتماعية والعادات والتقاليد السائدة..."[7].

بطبيعة الحال فهذا التحديد هو تحديد إطلاقي وعمومي ويحتاج إلى ضبط يقيد مجال المعرفة في علم الأنثروبولوجيا، والباحث في هذه الإطلاقية يعتقد أنه يصف الأنثروبولوجيا بمواصفات إيجابية في الوقت الذي يخرجها فيه من المعنى الحقيقي للمعرفة العلمية، ويدخلها في المعارف قبل - لعلمية التي لا تهتم "بمعرفة الحدود التي تقف عندها هذه المعرفة، لتترك المجال بعد تلك الحدود لمعرفة أسمى هي المعرفة الميتافيزيقية"[8] التي تبحث في كل شيء وتزعم العمومية، ثم إن القفز بهذا المفهوم الحديث وإسقاطه على الثقافة العربية القديمة ضرب أيضا من التعميم الذي تحدث عنه كاستون باشلار. لكن هذا التعريف له أهمية في إطار عدم التصنيف الضيق للأنثروبولوجيا في خانة الاشتغال على المجتمعات البدائية.

وحتى لا نقفز على مسألة التعريف التي وصفناها منذ البدء بالمأزق نورد ما تذهب إليه Annette Weiner وهي من الأنثروبولوجيين المعاصرين من تقديم "منظور جديد لفهم الدور الحيوي الذي تقوم به الأنثروبولوجيا في خدمة قضايا المجتمع، ودراستها لحظة التحول

---

(5)-إبراهيم حسن شحاتة: نظام الحماية بالمغرب مجلة كلية الآداب فاس ص 137 ع 2-3 سنة 1979-1980.
(6) -فوزي رضوان العربي: المدخل في الأنثروبولوجيا التطبيقية، ص 10، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981.
(7) -نفس المرجع ص 11.
(8) - محمد وقيدي: فلسفة المعرفة عند كاتطون باشلار. مكتبة المعارف ط 1.1980. ص 55.

والتغيرات السريعة الحادة والفجائية التي تطرأ على النظام. وبهذا تسهم في تشخيص المشكلات بطريقة متعمقة، قد تمكن من تقديم الطرق للمعالجة.

وتدرس الأنثروبولوجيا الظواهر على المستوى الجزئي، من خلال تقديم شبكة من المعلومات المفصلة، تحللها عدة متغيرات تربطها بالمنظور الكلي المتعلق بالتحولات والتغيرات التي تطرأ على النسق المحلي ونسق المجتمع العام"[9] فهذا التعريف يوضح بصورة جلية دور هذا العلم في علاقته بالمجتمع، كما يحدد موضوع الاشتغال الذي هو المجتمع ذاته دون تمييز أو هدف غير معرفي، كما يركز على طبيعة العمل باعتباره يلامس لحظات التحول التي تشهدها المجتمعات البشرية باعتبارها لحظات تغير ملامح التنظيم المجتمعي، ثم هي معرفة تشترك في كثير من ملامحها مع علم الاجتماع من حيث "تشخيص المشكلات" وتقديم الطرق للمعالجة"، فهذه الصفة تجعل الأنثروبولوجيا في حالة تعالق إلزامي مع علم الاجتماع، ذلك أن"دراسة الثقافة في البحوث الأنثروبولوجية تمثل إسهاما في حد ذاته، إذ لا يمكن فهم أية ظاهرة اجتماعية، دون فهم السياق الثقافي الذي ينظم القواعد السلوكية وربط ذلك السياق بالمتغيرات الكلية، لذا فإن الثقافة تعد محورا هاما في الدراسات الاجتماعية"[10].

2- الأنثروبولوجيا الثقافية:

يعتبر الأنثروبولوجيون الأمريكيون وعلى رأسهم مارغاريت ميد أن مجال اشتغال هذا العلم هو "دراسة الإنسان من الناحيتين العضوية والثقافية على حد سواء..." و"يستخدمون مصطلح الأنثروبولوجيا الثقافية ليعني مجموع التخصصات التي تدرس النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة الإنسان. يدخل في ذلك الدراسات التي تتعلق بحياة الإنسان القديم (أو حضارات ما قبل التاريخ)، والتي يشار إليها بعلم الأركيولوجيا."[11]

و"تتناول الأنثروبولوجيا الثقافية كذلك دراسة لغات الشعوب البدائية، واللهجات المحلية، والتأثيرات المتبادلة بين اللغة والثقافة بصفة عامة" [12]

ولا يمكن فصل هذه المجالات عن حقلين دراسيين هما الإثنولوجيا والإثنوغرافيا، "وبالرغم من التداخل بين المصطلحين، إلا أن مصطلح الإثنوغرافيا يعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد؛ والعادات والقيم؛ والأدوات والفنون؛ والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة؛ أو مجتمع معين؛ خلال فترة زمنية محددة. أما الإثنولوجيا فتهتم بالدراسة التحليلية؛ والمقارنة للمادة الإثنوغرافية، بهدف الوصول إلى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية، من حيث أصولها وتطورها وتنوعها. وبهذا تشكل الإثنوغرافيا قاعدة أساسية لعمل الباحث الإثنولوجي، فالإثنوغرافيا والإثنولوجيا مرتبطتان إذن وتكمل الواحدة الأخرى.[13]

---

[9]- Weiner, Annette. Culture and our Discontents. American Anthropologist. Vol. 97. N°1. 1995.
نقلا عن د. أمال عبد الحميد محمد. ضمن (المرأة والمجتمع/وجهة نظر علم الاجتماع) ص 242 دار المعرفة الجامعية 1998.

[10]- المصدر نفسه. ص 242.

[11] -قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان. د حسين فهيم ص 14

[12] -نفسه

[13]- TAX; T: The Development of American Archeology: University of Chicago 1973 P20-21
نقلا عن قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان. د حسين فهيم 14و15

علما أن "ما يدرجه الأمريكيون تحت عبارة الأنثروبولوجيا الثقافية يصطلح الفرنسيون على الإشارة إليه بالإثنولوجيا؛ أو الإثنوغرافيا في بعض الأحيان؛ وهم يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع. أما الإنجليز؛ فقد اختاروا تسمية أخرى؛ وهي الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ونظروا إليها باعتبارها علما قائما بذاته؛ لا يندرج تحته أي من الأركيولوجيا أو اللغويات مثلا"[14]

لن ندخل في تفصيلات دراسية والاختلافات النمهجية المعضدة لهذا التصور أو المخالفة له؛ فهذا مجال دراسات عديدة، ولكن هذا التوجه يسمح بالإشارة إلى أن كثيرا من الدراسات التي تتخذ لها النص الشفوي مجالا للدراسة تدخل في صميم الدراسات الأنثروبولوجية الثقافية؛ باعتبار الإنسان ظاهرة ثقافية [15]كما تشير إلى ذلك دراسات حديثة في هذا المجال [16] معتمدة على تحديد مفهوم الثقافة أولا؛ حيث أن هناك تعاريف عديدة للثقافة.

من هذا المنطلق فإن المقاربات النصية للنص الشفوي تبقى مدخلا لتفعيل أبعاد النص الثقافية انسجاما مع طبيعة بنائه وظلاله التي تختزل ذاكرات اللسان.

كما تبقى كثير من الدراسات التي تبئر البعد الإبداعي في دراسة الأدب الشعبي بعيدة بشكل من الأشكال عن العلمية والإبيستيمولوجية التي تموضع مثل هذه النصوص ضمن سياق له خصوصياته التي لا تدرس خارجه.

---

[14]- نفسه ص 16

[15]- Melville J. HERSKOVITS (1950),
Les bases de l'anthropologie culturelle
Paris : François Maspero Éditeur, 1967, 331 pages. Collection :
Petite collection Maspero, no 106.

[16] - Les définitions de la culture abondent. On s'accorde généralement à dire que laculture s'apprend, qu'elle permet à l'homme de s'adapter à son milieu naturel et qu'ellevarie beaucoup, qu'elle se manifeste dans des institutions, des formes de pensée et desobjets matériels. Une des meilleures définitions de la culture, quoique déjà ancienne, est celle d'E. B. Tylor, qui la définit comme « un tout complexe qui inclut les connaissances,les croyances, l'art, la morale, les lois, les coutumes et toutes autres dispositions et habitudes acquises par l'homme en tant que membre d'une société ». Des
synonymes de culture sont tradition, civilisation, mais leur usage se complique d'implications de différentes sortes et de différentes qualités de comportement traditionnel.
Une définition aussi brève qu'utile de ce concept est la suivante la culture est ce
qui dans le milieu est dû à l'homme. On reconnaît implicitement par cette phrase que la vie de l'homme se poursuit dans un cadre double : l'habitat naturel et le milieu social. Cette définition indique aussi que la culture est plus qu'un phénomène biologique.
Elle inclut tous les éléments dans les caractères de l'homme adulte qu'il a consciemment appris de son groupe et sur un plan quelque peu différent, par un processus de conditionnement : techniques, institutions sociales ou autres, croyances, modes de conduite déterminés. Bref, la culture forme contraste avec les matériaux bruts, intérieurs ou externes, dont elle dérive. Les ressources offertes par le monde naturel sont façonnées pour satisfaire les besoins. Les caractères innés sont, eux, modelés de telle manière qu'ils font dériver de dons inhérents les réflexes qui dominent dans les manifestations extérieures du comportement.
المصدر السابق